العطر العودي

العطر العودي

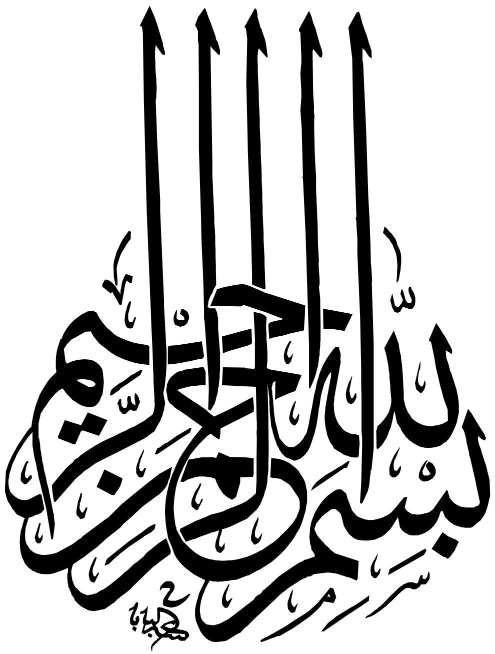
فرع الدراسات وخدمة التراث
الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

العطر العودي

في ترجمة

الشيخ سعيد بن عيسى العمودي

غلاف داخلي


بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني

أمن هو قانت آناءَ الليل ساجداً وقائماً يحذَر الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربه قُلْ هلْ يستوي الذين يعلمونَ والذين لا يعلمونَ . إنمّا يتذَكر أُولو الألباب . قُلْ يا عبادِ الذين آمنوا اتقُوا ربكُم للذين أَحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ وأرض اللّه واسعةٌ إنمّا يوفى الصابرونَ أجرهم بغير حسابٍ .

[الزمر: ٩-١٠]

لسان الحال..

يا إخوان.. من جد وجد ، ومـن جاهـد شهد، ومن اتقَى ارتقَى، ومن زرع حصـد ، واللّه قَرِيب مجيب .

الشيخ سعيد بن عيسى العمودي

((عرائس الوجود)) ص٥٢

الإهداء

إلى سلالاتِ الشيخِ سعِيدِ بنِ عِيسى العمودِي..

وإلى المُتطَلِعين حقّاً إلى نماذِجِ السلَفِ الصـالح ، غير مغالِين ولا مكَذبين..

أُهدِي هذه الترجمة..

وأهيب بالسلالة، ممن اطلَع على هذِهِ الأمثلِة، أنْ يتقِي اللّه في لحُومِ الصـلَحاء.. أئمـةِ الطريـق.. وشيوخ الفَرِيق.. وهلْ يكُب الناس في النارِ علـى مناخِرِهِم إلا حصائِد ألْسِنِتهم ؟

المُؤلّف

المدخل

الحَمد للّه غايةَ الحَمد، وله المِنةُ والفضلُ الـذي لا ينقطـع، والصلاةُ والسلام على النبي الأمي القائلِ: ((من حمى مؤمِناً من منافقٍ - أراه قال - بعثَ اللّه لَه ملَكاً يحمِي لحَمه يوم القيامـة مِن نارِ جهنم، ومن رمى مسلِماً بشيءٍ يرِيد به شينةً حبسه اللّه عز وجل على جِسرِ جهنم حتى يخَرج ما رماه))، وعلـى آلِـه الأطهار، وصحابتِه الأخيارِ، وعلى التابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم القرار .

النسبة المباركة

هو الشيخ سعيد بن عيسى بن أحمد بن عيسى بن شـعبان بـن عيسى بن داود بن محمد بن أبي بكر بن طلحة بن عبد اللّـه بـن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق خليفة رسول اللّه صلى اللّه عليـه وآله وسلم[1] .

---

(١) أشارت بعض كتب التاريخ والتراجم إلى نسبة المشايخ ((آل العمودي)) وصلتهم العرقية بالخليفة الصديق، وكما جاء في الأثر : ((الناس مؤتمنون على أنسا م))،

لقب بالعمودي لما كان رحمه اللّه مكثراً للصلاة والقيام ومحافظاً عليها، إذ هي عماد الدين، وأفضلُ قُربِ العبدِ في حالةِ المُناجاةِ، بل

وسلفنا الصالح حسب ما اجتمع لديهم من أدلة يقولون ذا، فقد صرح الإمـام الحداد رضي اللّه عنه في نبذَةٍ كتبها عنه أحد تلامذته بعد زيارته لدوعن، ومنها مدينة ((ِبضة)) قال فيها : وطلعنا بضة واجتمعنا فيها بكثير من أهل الفضل من آل العمودي وغيرهم، إلى أن قال في وصف من لقيهم - ومنهم المنصب المعروف بـ ((بوسِت)) - قال : وهو والي منصب آل العمودي، وسمي ((بوسِت)) لأن له في كل يد ست أصابع، لأنه شبيه بعبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصـديق رضي اللّه عنهم ؛ لأنه جدهم، وينتسبون إليه على ما ذكره بعض سـاداتنا آل باعلوي نفع اللّه م، وقد حقق هذا القول المنسوب للإمـام الحـداد السـيد علوي بن طاهر الحداد في كتابه ((الشامل))، فقال : وأول ما ذكـره الشـيخ محمد بن يس عن الحبيب عبد اللّه الحداد عند ذكر الشيخ عبداللّه بن عبدالرحمن بوسِت، وانتساب آل العمودي إلى سيدنا أبي بكر الصديق.

وقوله : ((على ما ذكره بعض ساداتنا آل أبي علوي)) فمراده بالبعض السيد الشريف عبد الرحمن بن علي بن أبي بكر السكران ابن عبد الرحمن السقاف، له كتاب فيه الوقائع التي وقعت له في اليقظة والمنام، وما بينهما مـن اطلاعـاتٍ روحية، ذكر منها أنه اجتمع بروح الشيخ الكبير سعيد بن عيسـى العمـودي، وسأله عن نسبه، فذكر له سلسلة نسبه إلى أبي بكر الصديق، والقصة أطول ممـا ذكرنا، وقد رأيناها بقلم بعض أشياخ آل العمودي . انتهى مـن ((الشـامل)) ص١٦٦ .

ورد في الحديث، كـ «رأس الأمرِ الإسلام، وعمـوده الصـلاةُ» فسمي الشيخ سعيد لذلك «عمود الدين» مِن حيثُ اصطلاح أهلِ جِهته بنقلِ «العماد» إلى «العمودي».

ميلاده ونشأته

ولد الشيخ سعيد بن عيسى بوادي دوعن[1]، ونشأ تحت رعاية أبويه على شظَفٍ من العيش، وزهدٍ في مظاهر الحياة، مع حسـنِ عنايةٍ بالتربية الدينية وأعمال الخير، وكانت التربيةُ الروحيةُ في حياةِ الشيخِ سعيدٍ محصورةً في التلقي والمجالسة، إذ روي أنـه لم يـتعلم القراءة والكتابة منذ الصبا ؛ إلا أن مصاحبةَ الشيوخ ومجالستهم لم تفُته ولم يتخلف عنها قَدر جهدِه وإمكانه، مما صـقَلَ فطرتـه.. وأشعلَ فِكرته.. وقَدح صافيَ مِشكاتِه.. كما جعلَ لـه في قلـوب العباد الصالحين مكاناً.. أحيا في جوانحِه ببركةِ القرب منهم وكثرةِ

(١) « دوعن » من لفظ « إيدعان »، وهو اسم جد قبيلة الصدف، ولما تكرر علـى الألسنة تصرفُوا فيها بالزيادة والحذف، وينقسم الوادي إلى قسمين : الأيمن مدينة الخريبة وما بعدها، والأيسر مدينة الدوفة . انتهى من « الشامل » ص١٣٥.

دعائهم ونظرهم مشاتلَ الفكر والذكر والمعرفة بالله .

فهو الناشئُ المستقيم الذي نبت عوده بين مساجد القرية ومجالِسِ صالحِيها، في عصر الزهد والتقلل من قليل الحياة المتاحة في ذلـك الوادي الوعر.. الوادي الذي كان في أساسـه منـأى المتفـرغين للطاعات، المبتعدين عن مظاهر الحياة .

وكم انفرد الشيخ سعيد بن عيسى في سـفوح تلـك الجبـال الجرداء، يلاحق أغنامه بين حسك الشجر.. ونتـوءات الحجـر.. ناظراً لجلال القدرة الإلهية في طبيعة المخلوقات، ومستجيباً لنـداء الفطرة الإيمانية فيما يقْرؤه بعينِه وينظره بقلبه مـن أسـرار هـذه المكنونات، وهكذا تفجرت ينابيع الحكمة، وانطلقت قيود الهِمـة، ترفع الإرادةَ البشريةَ إلى مقتضى الأخذ با اهدة والمكابدة، وإطلاق اللسان بالذِّكر، والجَنان بالشكر.. حتى صار الناس يسمعون مـن لسانه حلْو الكلام.. وطِيب السلام.. ويجِدونَ عنده بلْسماً شـافياً لجِراحِ القلوب.. وألَمِ الذنوب، بل كان يسـمِعهم مِـن لَطِيـفِ إشاراتِ الفهم.. ومدلولاتِ رمزِ الاسمِ والرسم.. ما لا يعهدونه في الأشباه والأمثال.. وفوق هذا صار له نور يتجلى علـى الجـبين.. ينكسر به عنق المتكبرين.. ويضعف أمامـه طُغيـان المتجـبرين..

ويهتدي بسِر ظهورِه منِ استظل بفيئه من الحائرين.. واشتهر أمره بين الناس.. وصار حديثَ المُتحدِثين والجُلاّس .

وذكرتِ الرواةُ أن الشيخ سعيداً تزوج بنت الشيخ سعيد بن أحمد بلوعار بلعفيف[1]، ويذكر أنه لما تزوجها وزفت إليه رأت منه فترةً عن قيام الليل خلافاً لما سمعته عنه، ولما يذْكُره به والدها عن حال الشيخ سعيد، وكذلك خلافاً لما عهدت عليه والدها العابد الزاهد، فما كان منها إلا أن رجعت إلى أبيها من الغد وقالت : كيف أعيش مع رجلٍ ما له قيام في ليلِه؟ فقال لها والدها : ارجِعي وانظُري ماذا يفعلُه في ليله من الأعمال والأقوال.

فعادت إليه ومعها من أهلها من يحمل خبرها إلى والدها إذا لزمها الجلوس، فلما كان الليل راقبته حتى طلع الفجر، فأرسلت إلى

---

(١) الشيخ سعيد بن أحمد بلوعار بلعفيف من كبار رجال القرن السابع الهجري بحضرموت ومن أشهر صلحائها، عاصر جملةً من أكابر الوادي وأخذ عنهم، وفي مقدمتهم السيد سالم بن بصري، وعاش بالهجرين في وادي دوعن، و ا توفي ليلة الخميس الخامس من شهر جماد الثاني ٦٣٢ ودفن بتربتها، ويطلق عليه ((مقدم التربة)) كما هو حال الفقيه المقدم في تربة تريم، ولم يحفظ لنا الزمان من آثار هذا الشيخ سوى الدعاء المنسوب إليه وهو متداول في حضرموت، ويقرأ بعد ختم القرآن .

والدها من يخبره بخبر ما رأت منه، فقالت: إنه إذا قَرب الفجر يقوم يصلي فيقول : أنا.. أنا.. أنا.. فلما وصل الخبر إلى الشيخ سـعيد بلوعار أرسل إليها يقول : هذا المقام الذي ما وصلنا إليه، إشارةً إل أن مقام الشيخ سعيد بن عيسى العمودي مقام الرد على المنادي : «ألاَ هل مِن تائبٍ ؟ ألا هل من طالبٍ حاجةٍ ؟» .

وحنت روحه إلى علمِ الذوق والشوق، وكانت أخبار رجاله في ذلك العصر تأتي ا الرياح، وتتحدثُ عن مشايخ الطريق في الشام وجهات اليمن والحجاز والمغرب والعراق مع كل غُـدو ورواح، فكان الشيخ سعيد يسأل اللّه أن يجمعه بأثبات علم الباطن والظاهر، كي يستمد من فيض مشر م الزاخر، وظهر النور في أشد أوقـات الحرج.

وفي ضحى أحد الأيام المباركة عام ٥٩٠ بدأ النسيم يحمـل إلى الشيخ سعيد ما حملته الرياح إلى يعقوب، يوم حكى اللّه خبـره في الكتاب العزيز : ولمـا فَصلَتِ العِيرِ قال أبوهم إني لأجِد رِيـح يوسف حيث كان الشيخ عبد اللّه الصالح المغربي متجهـاً مـن وادي حضرموت إلى وادي دوعن يحمل رسالته الثانية إلى الشـيخ سعيد بن عيسى العمودي، حيث كان قد أبلغ رسـالته الأولى إلى

الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي في مدينة تـريم، وأخذ عليه العهد، وألبسه الخرقة، وأمره بإظهار أمـره واشـتهار دعوته، فلم يعد الأمر الأخذ بطريق التصوف سرا، بل صار للفقراء في ذاتِ اللّه شعاراً وفَخرا .

ويبدو أن خبر الفقيه المقدم والشيخ سعيد بن عيسى العمودي قد وصل إلى المغرب عن طريق الحجاز، وأُخبر الشيخ شعيب أبو مدين بحالهما وتوجههما، فما كان منه إلا أن بعث إليهما من يربطهمـا بمنهج التصوف ومدرسته الأخلاقية، وكان المبعوث أحد المشـايخ الحضارمة الذي قد وصلوا إلى المغرب، وأخذوا علم الطريق علـى أبي مدين، وهو الشيخ عبد الرحمن المقعد، الذي أخـبره الشـيخ شعيب أنه يموت في الطريق قبل أن يصل إلى حضرموت، وأنّ عليه أنْ يستنيب عنه رجلاً آخر، وهو الشيخ عبد اللّه الصالح المغربي أحد سلالات ملوك المغرب، وكان رفيقا للشيخ عبد الرحمن المقعد مـن المغرب إلى الحجاز، فكان الأمر كذلك .

مبعوث الشيخ أبي مدين في وادي دوعن

وصل مبعوث الشيخ أبي مدين إلى تريم وأدى مهمته كما يجب، وخرج لتوه متوجهاً إلى دوعن ليلتقي بالشيخ سعيد بن عيسى العمودي، وأخذ يسأل عنه حتى دل عليه بناحية قيدون في واديها الميمون يرعى الغنم، فذهب إليه واجتمع به، وقد ناهز الشيخ سعيد الثمانين من عمره[1]، وألبسه الخرقة[2]، وأخذ العهد عليه، ودعاه إلى إظهار أمره، ونشر الصوفية بالوادي، وقد كان الشيخ سعيد من قبل لا يظهر التصوف كدعوة وطريقة، وإنما كان يتخلق به سلوكاً وأدباً، وأخبره الشيخ المغربي عن أخذ العهد على الفقيه المقدم.. وإلباسه الخرقة الشريفة.. وأنه قد أبرز نفسه في تريم.. وانطلقت لسانه بالدعوة إلى طريقة الفقر الكامل لله تعالى.. وترك الرياسات.. وعدم التطلع إلى الفانيات.. كما هو حال المتجردين

---

(١) ذكره السيد علوي بن طاهر في « الشامل » ص٢٢٩ .

(٢) يعني بالخرقة : خرقةَ التصوف، وهي لباس يوضع على المريد، ويرمز إلى ترسم الحامل له بزي الصوفية والدخول في دائرتهم، وغرضها حصولُ البركة وأخذ العهد بالسند المتصل للخِرقة ظاهراً وباطناً .

وقد استوفينا النقل على الخرقة في ترجمة الفقيه المقدم ضمن هذه السلسلة.

عن الحياة الدنيوية الزاهدين .

وكان الشيخ سعيد على غاية من التواضع والخمول والزهد، لما نشأ عليه من حب الآخرة، وصدق في التجرد لمولاه، فكان هـذا العهد والإلباس بمثابة التاج الموضوع على المرء المتـهيئ للمراتـب العالية، فأخذها الشيخ بقوة، ولسان حاله يقول :

لا يدرِك الذوق إلا من لَه حالُ   ولا المَقام سِوى من فِيهِ إقبـالُ
الذوق نور مِن العِرفانِ يقْذِفُه الر   حمن في قَلْبٍ صب فيه إجـلالُ
إلى الحضائرِ في الأوقاتِ منجذِب   بحالِه و ا منه صـفا البـالُ[1]

وبرز الشيخ سعيد منذ تلك اللحظة في ثـوب أهـل الـذوق والشوق.. واحتفل الوادي بقدوم الشيخ عبد اللّه الصالح المغـربي، وأظهر الناس الفرح به والسرور بمقْدِمِه، حتى إن المقام طاب له في الوادي مدةً من الزمن، ثم انتقل إلى وادي ميفعة، وقيل : أقام بقرية « أصبعون » وتزوج ا، وخلف بعد وفاتِه بناتاً، صار أمرهن مـن بعده للشيخ سعيد بن عيسى العمودي حسب وصيته[2] .

---

(١) ديوان « شراب الكأس » للشيخ عبد المحمود نور الدائم .

(٢) ذكره كتاب « عرائس الوجود » ص٢٠ .

ومن عجائب أمر الشيخ المغربي أنه عندما حضرته الوفاة بعث إلى كبار الآخذين عنه، وهم الفقيه المقدم، والشيخ سعيد بن عيسى العمودي، والشيخ باحمران، وطلب منه الثلاثة أن يستخلف من بعدهم شيخاً يرجعون إليه، فسكت المغربي طويلا ثم قال: «شيخكم من بعدي صاحب السبحة»، وقد جعلت ميراثي بينكم أرباعاً، وكان ميراثه : سبحةً، وعكازاً، وقِدراً، ومشعلاً، وحبوةً، وبسطةً، ودلقاناً .

ولما توفي الشيخ وقسمت وصيته جاءت القسمة على النحو التالي :

العكاز والسبحة للفقيه المقدم، القدر والمشعل للشيخ سعيد بن عيسى العمودي، الحبوة والبسطة للشيخ باحمران، الدلق للشيخ باعمر .

ورمزت الوصية التي أوصى ا الشيخ إلى تعيين صاحب السبحة على الجميع فكان الفقيه المقدم، وكان الأمر كذلك، فقد انطوى كبار شيوخ التصوف المذكورين تحت لواء الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم، وحصل الائتلاف بين أقطاب الدعوة الصوفية، وحملوا على عواتقهم نشر الطريقة .

الشيخ سعيد العمودي خزانة آل باعلوي

اشتهر بين الناس إطلاق اسمِ «خزانةِ آلِ باعلوي» على «آل العمودي» منذ أن تم الاتحاد الروحي بين العلَمين الشهيرين، حاملَي لواء المدرسة الصوفية بحضرموت، الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم والشيخ سعيد بن عيسى العمودي، و ذه الألفة الروحية والتحابب الذوقي صار الشيخ رافداً وسنداً لقرارات ومواقف الفقيه المقدم، بل كان القاعدةَ الحِسيةَ والمعنويةَ لتنفيذِ الفقيه قراره بكسر السيف، كرمزٍ للتحول من مظاهر الحياة الاجتماعية السائدة في ذلك العهد، إلى طريقة الخمول وترك الرياسات، والاعتناء بديلاً عن السيف بالعلم والعمل، كأساس للفكرة الجديدة، الذي اصطبغ ا توجهه الروحي .

ويعود أساس التسمية - كما ذكرها «الشامل» - لما صار إليه من تراثِ الفقيه وسِره، وما حازه ببركة صحبته، حتى قال الحبيب جعفر بن أحمد الحبشي في قصيدة مدح ا الشيخ العمودي :

فيه مكْنونُ سِرنا آلِ علْوي أخبرتنا بذا الثقات شِفاها[1]

---

(١) «الشامل» ص٢٣٢، وهي آخر صفحة فيما بقي من «الشامل» بين أيدي الناس الآن .

ولا يعني أن الفقيه المقدم قد نـزع بالعلويين إلى الجهل والضعة عندما أخذ ذا الطريق كما يظُن بعض الأحفاد الجهلاء، وإنما كان للفقيه هدفان أساسيان : أحدهما سياسي والثاني ديني واجتماعي .

فالهدف السياسي لَخصه لنا المؤرخ السيد محمـد بـن أحمـد الشاطري في «أدوار التاريخ الحضرمي» فقـال : كـان الحُكّـام السياسيون بحضرموت في عصره، وفيما قبله ينظرون إلى العلـويين نظرةً ينفسون فيها عليهم المكانةَ التي يحتلو ا في القلوب، ويخشون من شعبيتهم على ملكهم، فيحيطو م بسياج من الرقابة، ويضيقون عليهم الخناق، نفس ما جرى وما يجري من قبـل مـع آبـائهم وإخوا م العلويين، من بني أمية وبني العباس والحكام الآخرين، وقد عرف الفقيه المقدم بنفسه كل ذلك في أسرته، فقد اضـطُر جـده صاحب مرباطٍ إلى الهجرة نتيجةً لتلك المضايقة، كما شاهد بنفسه ما لاقاه عمه علوي شقيق أبيه من آلامِ السم الذي دسه له حـاكم تريمٍ القحطاني، ولهذا فإن تقَلد السلاحِ معناه آنذاك في نظر الآخرين المسالمين الاستعداد لهم والمقابلة، ولابد من الاصطدام يوماً ما بـين القِرنِ وقِرنه، ثم بين الأبناء، كما بين الآباء حول وعداوات متوارثة وأخذ بالثأر مستمر، كما هو الواقع بين القبائل، فرأى الفقيه المقدم

البعيد النظر القضاءَ على الشر من جـذوره.. واختيـار طريقـة التصوف المعتدل، وحمل بيده العكاز الذي يرمز إلى التصوف، بدلاً عن السيف الذي يرمز وقتئذ إلى النهب والسلب والإجرام وطلب الحكم والثأر والانتقام[(١)] .

وأما **الهدف الديني والاجتماعي** فهو كما بينه أيضا الشاطري في «الأدوار» بقوله : مما اجتمعت عليه المصادر أن الفقيه المقدم نـزع السلاح بل وكسر سيفه، دعا قولاً وفعلاً إلى نـزعه، ليقضي على العقيدة القبلية، وبرهن فعلاً على وجوب التعايش السلمي، والأخوة الإسلامية والمذهبية والوطنية بين قبائل الشعب وقطاعاته، وعلى أن سلاح العلم والإيمان هو أقوى الأسلحة في المجتمع، وأمضـاها في قيادة الأمة، وتوجهها إلى حياة السعادة والخير والتقدم[(٢)] .

ومن هذا المضمار الحيوي كان موقف الفقيه المقدم موقفاً شجاعاً وهاماً، وكان أيضا موقف الشيخ سعيد بن عيسى في مساندة هـذا القرار لا يقل شجاعةً وأهميةً عن صاحب القرار ذاته . وتشير كتب

---

(١) راجع « أدوار التاريخ » (٢: ٣٠٤-٣٠٥) .

(٢) المصدر السابق (٢: ٣٠٤) .

التاريخ أن أجزاء السيف المذكور كانت محفوظة لدى «آل العمودي» مع بعض آثار الفقيه الأخرى، وقد آلت إليه بوصية من الفقيه المقدم، كما هي عادة الصوفية إعطاء المريد المرشح للمشيخة شيئاً من اللباس أو غيره، كما فعل الشيخ الصالح المغربي، عندما أوصى بتقسيم تركته على كبار الآخذين عنه طريق التصوف، ولازالت هذه البقايا محفوظةً في قيدون إلى اليوم، تحت رعية القائمين على زاوية ومقام الشيخ سعيد بن عيسى العمودي.. كمثالٍ ورمزٍ للاتصال الروحي بين الإمامين العلمين، هذا الاتصال المعبر عنه بالاتحادِ الكُلي «طريقةً وعلماً وعملاً ومصاهرةً».

كما بينه السيد علوي بن طاهر بقوله : وقد كان آل العمودي وساداتنا آل باعلوي متحدِين من سابق الزمان ببركات اتصال سيدنا القطب الغوث الفقيه المقدم جمال الدين محمد بن علي باعلوي والشيخ الكبير العارف بالله سعيد بن عيسى العمودي، وحصل لآل العمودي خيرات كثيرةٌ مباركةٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ، وحصل لهم حسن عقيدةٍ أكيدةٍ، ومصاهرةٌ مؤبدةٌ لا تنقطع، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «كُل نسبٍ وصِهرٍ ينقَطِع يوم القيامةِ إلا نسبي وصِهري .. الحديث» بمعناه، وحصلت لهم اقتباسات من علومه،

واستمدادات من أسراره وفهومه، وأخذ عنه العلم الظاهر والباطن شريعةً وطريقةً وحقيقةً وسلوكاً غالب مشايخهم وصلحائهم وصوفيتهم ودولتهم .

وجاء في كتاب «عرائس الوجود»: وأما ما حازه الشيخ سعيد من الاتحاد مع سيدنا الفقيه المقدم في الذرية والأولاد، فمن جملة ذلك ما حكاه الشيخ العلامة باسودان في «فيض الأسرار» مع ما شهدت به الأولياء الأبرار، فهو ما استودعه من السر النبوي، بحيث صار «خزانة بني علوي»، فناهيك بذلك مقاماً واحتراماً، ولعمري إنها لتكفيه تلك المقامات العلية، والنفحات العلوية، إذ اتصالها بالأخلاق المحمدية، كما يقال له «خزانة آل باعلوي» وهو حري بذلك، وحقيق بسر ما هنالك .

الطريقة العمودية

يمكن تحديثُ لفظ «الطريقة» لتتلائم مع فَهمِ جيلنا المعاصر فنسميها «المدرسة»[1] ، وإذا كان جِيلُنا الإعلامي يدرس في كافة

(١) المقصود بالطريقة هنا هو الأسلوب والكيفية المتبعة لدى الشيخ المذكور وأمثاله في

مراتب دراسات الهيكل التعليمي العـالي منـهاج عِلْـمِ الـنفْسِ والاجتماع والاقتصاد والفلسفة وهلُم جرا، ويتأثر بنظريات المدرسة الديكارتية والبافلوفية، وآراء روث وجان جاك روسو، ومن نحـا نحوهم من شيوخ المعارف المؤثرة على المدرسة الحديثة.. المدرسـة التي يتخرج منها حملَةُ الشهادات بأنواعها.. إذا كان الأمر كذلك فإننا لابد أن نعلم أننا عند دراستنا للتصوف بواقعيةٍ وإنصـافٍ ؛

تسليك المريدين، وترتيب وظائف عادا م وعبادا م حتى يتخرجون على يديـه، وكثير من المغرضين يحللون ألفاظ الصوفية بأسلوبٍ يتسم بالتمويه والتعتيم، لما في نفوسهم من آثارها، وإلا فالأمر واضح كل الوضوح لمن أراد معرفة الحق وأهله، فترى كثيراً اليوم ممن يعيب على الصوفية تقسيم المراتب الإسلامية إلى شـريعة وطريقة وحقيقة، ويذهب المتنطعون بألفاظهم وفهومهم في هذا التقسـيم كـل مذهب، ويرهقون أذها م في ابتكار التهم المحرجة لهم أمام اللّه، والتهم المحرجـة لعباده، ولو كانوا يبحثون عن الحق لكفاهم استدلال العلماء في هذا التقسيم بما وصفه المقارنة بين هذه المراتب الثلاث وبين أركان الدين .

فالشريعة مرتبة الإسلام، والطريقة مرتبة الإيمان، والحقيقة مرتبة الإحسـان، وهذه المراتب الثلاث لابد من تحقيقها في سريان الإحسان.. أن تعبد اللّه كأنـك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.. والاعتقاد : أن المنصـفين في دوائـر المعرفـة سيدركون هذا التقسيم الشرعي ؛ لأنه تقسيم ملائم لمفهوم المعنى المراد في أركان الدين .

سنجد أن ما تؤثر به المدرسة الحديثة غربية وشرقية، هو أكبر بكثيرٍ مما تتهم به مدرسة التصوف من تأثرها بمدارس أجنبية، بل التهمـةُ ذاتها صنيعةُ المدرسة الاستشراقية، ومنها تلقفت مدرسـة الـنقض الحديثة فقه التهجم على التصوف وعلى المدرسة المذهبية .

ومع هذا كله، فالتصوف طريقةً ومنهجاً قد يحصل من بعـض المنتسبين إليه إفراطٌ أو تفريطٌ، شأنه شأن المذهبية وغيرهـا مـن المدارس والاتجاهات إلى اليوم ؛ ولكن لا يصح بأي حال أن ننسب الانحراف إلى المنهج والطريقة بإفراطِ أو تفريطِ بعض المنتسبين إليها.

فالمدرسة الحنبلية مثلاً ظهر في بعض المنتسبين إليها شذوذٌ وإفراطٌ في الآراء والأحكام والعقائد ؛ إلا أن كافة علماء الملة لم ينسـبوا الانحراف إلى المذهب ولا إلى المتمسكين به، بل حجمـوا رجـال الإفراط والتفريط في موقعهم المناسب من المذهب، ومن المنـهج الإسلامي كله، بل تنسحب هذه القاعدة حتى على ما جرى مـن الصحابة في الصدر الأول من خلافٍ مذهبي وعقيدي وسياسي .

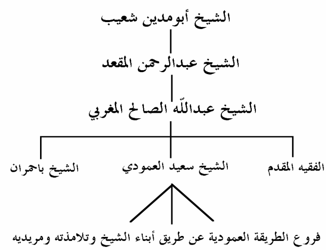
إذاً فالمدرسةُ الصوفيةُ مدرسةٌ إسلاميةُ التأصيل والتفريع، وأهـم عنايتها الأخلاق واستقامة القلوب على المنهج النبوي الخالص، وأما

علاقتها بالشريعة فهي منطويةٌ تحت آراء المذهبية، مندرجةٌ ضـمن أصولها وفروعها، وأهمها في دراسـتنا هـذه مدرسـة التصـوف بحضرموت، وحضرموت لم تعرف التصوف منهجاً وطريقةً إلا في القرن السابع الهجري كما أسلفنا القول، بينما عرفت أرجاء اليمن الأخرى الطريقة القادرية، وأخذت ا من قبل ذلـك بسـنوات كثيرة.

وكما انتشرت الطريقة القادرية في أرجاء اليمن، فقد انتشـرت الطريقة الشعيبية في حضرموت منذ القرن السابع، ومـن هـاتين الطريقتين أو المدرستين ظهرت بقية الطرق، وتفرعـت مـدارس الذوق الصوفي، وكانت في ذلك العصر تمثل عنفوان المنهج ومنطلق القبول ؛ لما تحمله في مقوما ا الفكرية من حل لكثير من معضلات العصر الضاربة على الأذهان .

ولهذا نجد رجلاً مجتهداً في الأصول والحديث كالفقيه المقـدم، يتحول من مرتبة ا تهد الأصولي إلى الصوفي الخمولي.. ويرضى أن يسلك بأبنائه وأتباعه من «آل البيت النبوي » ومحبيهم ومشايخ العلم طريق الفقر والتأدب بأدب الصوفية، فالمسـألة تعتـبر ضـرورةً اجتماعيةً، والأخذ ذا المنهج إلحاح زمني ملائم لموقـف السـاعة

آنذاك، ولما كان الأمر ضرورةً مِلحةً وكان مطلب الحياة لا يمكـن أن يستمر إلا بمثل هذا التصرف ؛ فقد كان الشيخ سعيد بن عيسى العمودي مستجيباً لهذا الظرف ومندفعاً إليه، منطوياً تحـت رايـة ا تهد الأصولي - الفقيه المقدم - من حيث موافقةُ الاختيار والأخذ به، وأما تعبير المؤرخين بلفظ «الطريقة العمودية» فالمقصـود ـا سلسلةُ الأخذ التي اتصلت إلى الشيخ وصار المريـدون والتلامـذة ينتمون إليها.. ثم يأخذون على من جـاء مـن بعـدهم العهـد والتحكيم.. ولهذا عبر الإمام العلامة الوجيه عبدالرحمن بن عبداللّه بلفقيه في كتابه « رفع الستار » بقوله : إن الطريقة العمودية أحـد الطرق المشهورة المرضية، معدودةٌ من نحو ثلاث وعشرين طريقـة، وكلها ترجع إلى طريقة واحدة، وهي طريقة الشـيخ شـعيب أبي مدين[1] .



(١) « عرائس الوجود » ص٣٤ .

الشيخ سعيد والآخذون عنه

من وظائف الشيخ الصالح والمربي الناصح أن يتخرج على يديـه رجال وأتباع، يأخذون عنه ثمرات العلم والعمل وصافي السـلوك، ويجسدون حقيقةَ المعاني التي تتمثل في صدر الشيخ ومكنون وعيِـه مما اكتسبه في حياته العلمية والعملية، ومما فتح اللّه به عليه من طول طاعاته ومجاهداته، وصدق توجهه إلى مولاه .

والشيخ سعيد كان من أرقى شيوخ التربية والتسليك في عصره، خاصة وأنه عاش ردحاً من الزمن وهو محتك بالشيخ عبـد اللّـه الصالح المغربي، وصار من بعده مسلكاً مربياً للنفوس والأرواح، وقد تحدث عن نفسه بنفسه فقال : قَدمت بيدي سبعةَ عشـر شـيخاً، منهم من قدمته سراً، ومنهم من قدمته جهـراً، والتقـديم معنـاه التخريج والتهيئة للصدارة والتدريس والقدوة الحسنة .

وقد نقل الآخذون طريق التصوف عن الشيخ سعيد طريقته إلى الآفاق، وكان من أبرزهم وأجلهم قدرا وعلما وعملا جماعة مـن الشيوخ، ومنهم :

(١) الشيخ محمد بن محمد بامعبد الدوعني، وكان من أخـص

التلامذة المقربين إلى الشيخ سعيد، وأخذ عنه أخذاً تاماً، وانطوى فيه وتخرج به، ونال من شيخه الرضا له بالجدارة والصدارة، وتشير التراجم أن بعض تلامذة الشيخ سعيد حصل في نفسه شيءٌ من تقديم الشيخ معبدٍ على أقرانه، فلما شعر الشيخ سعيد بذلك قال لمريديه: لا يداخلكم مني شيءٌ، فإن الشيخ محمد بامعبد من البزل الكُهل، وأنتم قعدان[١] ما تطيقون على حمل ما يحملُه.

وتزوج الشيخ بامعبد امرأة من آل العمودي، وأنجبت له أولاداً: الغزالي وأم محمود وأم أبي القاسم وأم رقية . وذكر ذلك صاحب «أنس السالكين» ضمن ذكره لكرامةٍ من كرامات الشيخ سعيد بن عيسى العمودي، وعاش الشيخ بامعبد بقرية « رضوم » من بلاد الواحدي، ومات ا، وضريحه معروف هناك، وله ذريةٌ لا زال منها بقيةٌ إلى اليوم يعرفون بآل معبد .

(٢) الشيخ محمد بن سالم باوزير .

(٣) الشيخ ناجة بن أمتع .

---

(١) البزل الكُهل من الجمال : الكبيرةُ التي عركتها التجربة وتعودت على حمل الأثقال، كنايةٌ على حمل السر والصبر، والقعدان جمع قُعود، وهو الجمل الصغير الذي لا يزال تحت التدريب .

(٤) الشيخ باعمر صاحب بلدة عورة[1] .

(٥) الشيخ بايزيد صاحب بلدة الخميلة .

(٦) الشيخ بابليل .

(٧) الشيخ باعشن صاحب الرباط المعروف بوادي دوعن .

(٨) الشيخ باحاج صاحب بلدة ريمة وادي عماقين .

(٩) الشيخ سليمان بامنيع صاحب بلدة الخريبة .

(١٠) الشيخ حسن بلخير صاحب بلدة حجر .

(١١) الشيخ علي والشيخ أفلح .

(١٢) المشايخ آل باحمِيش .

كما انتفع به وأخذ عنه ولداه الإمامان الشيخان العلَمان : جمال الدين محمد بن سعيد وعلي بن سعيد، وعنهما أخذ الطريق جملة من الأحفاد والأقارب، كمولى شعب خضم الشيخ عمر بـن محمـد، والشيخ عثمان بن عمر بن محمد، والشيخ محمد بن عثمان، والشيخ

(١) ((عورة)) قرية بوادي دوعن بأعلا ((قارة))، وهي ملك آل باصرة، وكانت قبلُ بيد المشايخ آل باجعيفر، ثم صارت لقثم، ثم بعد استيلاء القعيطي على الـوادي وهبها لولد باصرة الذي سماه عوض باسم السلطان . انتـهى عـن ((الشـامل)) ص٤٦.

عبد اللّه بن محمد بن عثمان «صاحب ذمار»[1] ، والشيخ عثمان بن عبد اللّه، والشيخ أحمد بن محمد الملقب بالقديم، والشيخ عثمان بن أحمد، والشيخ عمر بن أحمد الملقب بالطيار، والشيخ عبد اللّه بن عمر صاحب العرض، والشيخ عمر بن أحمد بن عبد اللّه، والشيخ عبد الرحمن بن عمر، ترجم له في «النور السافر»، والشيخ عثمان بن محمد المذكور في « تاريخ بامخرمة »، والشيخ أحمد عبد الرحمن الآخذ عن الهيتمي والرملي، والشيخ عمر بن عبدالقادر الآخذ عن الإمام الحداد، والشيخ عبد اللّه بن عثمان صاحب الدوفة، والشيخ عثمان بن سعيد المقبور برباط باعشن، والشيخ عثمان بن عبدالقادر

(١) ذكر المؤرخ السيد علوي بن طاهر في « الشامل » ص١٦١ عن الشيخ صاحب ذمار ما مثاله : كان الشيخ عبد اللّه بن محمد من العلماء العاملين، ورجال الإصلاح والهمة في سبيل نصر الشريعة المحمدية، حتى إنه حمل السلاح في سبيل ذلك خلال القرن التاسع، واستولى على وادي دوعن سنة ٨٣٦، وسكن الخريبة، وأقام الشريعة وأحيا السنة وأطفأ البدعة ؛ لكن لم يوافق ذلك هوى القبائل وبعض المشايخ فحاربوه وأخرجوه، فانتقل إلى ذمار وتوفي بها سنة ٨٤٠، وكانت مدةُ حكمه كلها عدلٌ واستقامةٌ، حتى إنه أخذ الزكاة الشرعية من الأغنياء ؛ ولكن الشيخ فارس بن سليمان وأحلافه جهزوا عليه جيشاً وهاجموه سنة ٨٣٨، وحاربوا أنصاره حتى تفرقوا وانكسروا، وحاصروه في داره حتى أُخرج بأمانٍ وأُحرقت جميع كتبه . انتهى بتصرف من «الشامل» ص١٦١ .

بوادي «يبعث»، والشيخ محمد بن عبد الله المقبور ببلـدة قيـدون، والشيخ عثمان بن أحمد، ويعرف بأحمد الصغير للتمييز بينه وبـين جده محمد بن عثمان بن أحمد القديم، وهو - أي: الشيخ عثمان - أول من نقل «زاوية العمودي» من قيدون إلى « بضة »، وكانت قبل ذلك بقيدون، وكان على ولايتها الشيخ عمر بن أحمد، ثم جـرت أمور ألجأتِ الشيخ عمر إلى التخلي عنها ووليهـا بعـد أخـوه عثمان[1].

صفات الشيخ سعيد وأخلاقه

كان رجلاً جسيماً كبيراً، أسمر اللون، كَث اللحية، يغشاه نـور الذكْرِ والعبادة، لا متكبراً ولا متجبراً، شعاره التواضع والانكسار، ملازماً للعبودية والافتقار، يركب دابته بغير بساط، ويلبس ما يجده من الثياب من غير إسرافٍ ولا مخيلة، كان كريماً جواداً سـخياً، ينفق ما يدخل عليه من الأموال على المستحقين، ويطعم الفقـراء والمساكين، ويكرم الأضياف والقاصدين، كما كان ينفـق علـى

(١) « الشامل » ص٦٠.

مريديه وتلامذته مما يفيض اللّه عليه غير بخيلٍ ولا مقَترٍ، كما كـان كثير ا اهدة في ذات اللّه تعالى، كثير الذكر، طويلَ الفكر، سريع التأثر عند سماع آيات القرآن، مكثراً من زيارة الأولياء والصالحين، قائماً بحق الأقارب والجيران والأهلين .

أجرى اللّه على يديه من النفع العام والخاص مـا لا يعـد ولا يحصى، كما كانت أصابعه المباركـة بلسـماً لجـراح المرضـى والمصابين، يشفي اللّه بدعائه المكروبين والمصابين، كما ظهرت له من الكرامات والخوارق الشيء الكثير، وهي من أدل الدلالاتِ على مقام الشيخ وعظم حاله، وصدق افتقاره إلى من يجيب المضـطر إذا دعاه ويكشف السوء .

وقد كتب بعض المؤلفين صفحاتٍ عديدةً في شرح كراماته التي أجراها اللّه على يديه، وقد تجاوزنا ذكرها في هذه الترجمة لأ ا ثمرةٌ من ثمرات الأعمال وتحقق الصلة بين العبد وربه، وجعلنا جل همنا إبراز الأعمالِ ذاتِها، وما أقامه اللّه فيه من مظهرٍ ومقام، لأ ا أساس التنافس، ومرتكز الاختيار، وسبب القَبول عند اللّه تعالى، كما أن جيلنا المعاصر أُصيب بلَوثَةِ الإنكارِ لكل ما خالف العقل، وذلك من كثرة ما دخل عليه من السموم والتأثيرات المتنوعة، فالعقلُ ملَكـةٌ

محدودةُ الأثر، قاصرةُ الاستيعاب والتحمل لو أراد المرء أن يجعلـها حاكماً لكل شيء في الحياة الدينية والدنيوية، وإنما جعلـت هـذه الأداة بالنسبة لوجهة نظر الإسلام - التي هي مراد الخالق سبحانه - كي تؤدي وظيفتها التي خِلقَت من أجلها، ومجالهـا المحسوسـات والفهوم والاستنباطات وإعمال القوى الذهنية في معرفة مـا وراء المكنونات والكائنات، أما أن يتحكم العقل في الغيـب، ويجعـل الأشياء الغائبة عن ملَكَتِهِ ووعيه محالاً فذاك تطاولٌ وزيادةُ إشكالٍ .

والذي ينبغي أن يعيه جيلنا المعاصر أن الكرامةَ انفعالُ الظواهر بأمر اللّه على يد عبدٍ من عباده الصالحين، والسحر والشعوذة أيضا انفعالُ الظواهر بأمر اللّه على يد عبدٍ من عباده المسـتدرجين، وأن المعجـزة انفعالٌ للظواهر بأمر اللّه تعالى على يد أنبيائه ورسله المكرمين، كـل مرتبةٍ لها ضوابطها ودلائلها[1] ، ومن نسب شيئاً من هذه الانفعالات إلى من لا يستحقها فقد خرج عن مراد اللّه في عباده، وحكم عقْلَـه وهواه فيما جاء عن اللّه وعن رسول اللّه، فليحذرِ الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذاب أليم .

---

(١) راجع « شروط الاتصاف لمن يقرأ في تراجم الأسلاف » للمؤلف، مطبوع .

الشيخ سعيد والعلوم الدينية

درج العلماء الأثبات على تقسيم العلم إلى قسمين : علمٍ كسبي وعلمٍ وهبي، **فالعلم الكسبي** هو ما حصله المرء بجهدٍ ذاتي وإعمالٍ تام للجوارح خلال مراحل طلبه ومجالسته للعلماء والشيوخ، وقراءاته ومطالعاته، ومجموع تجربته الواعية في الحياة .

وأما **العلم الوهبي** فهو كل ما يمنحه اللّه للعبد من مفهوم الحكمة خلال ترقيه في طلب العلم، أو خلال سيره إلى ربه متدرجاً في الطاعات والأعمال الصالحات، حيث إنّ لكل طاعةٍ ثمرةٌ، ولكل ثمرةٍ ذوق، وأكثر ما يفسد ثمرات الطاعات المعاصي، وإذا فسدت الثمرةُ فَسد الذوق، وبقيت الطاعة كشجرةٍ بلا ثمرة، والذين صدقوا في الطاعة للّه منحهم اللّه الثمرة، ونوع لهم ذوقَها، ووجدوا من الذوق مقاماً إيمانياً، فيقول : « ذاق طعم الإيمان من رضي باللّه رباً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمد صلى اللّه عليه وآله وسلم نبياً ورسولا » . ومن ذاق طعم الإيمان أجرى اللّه على لسانه آثار هذا الطعم حكمةً وعلماً، قال اللّه تعالى : واتقُوا اللّه ويعلمكُم اللّه ، وهذا هو مجال حديثنا عن الشيخ سعيد رحمه اللّه .

فالشيخ سعيد بن عيسى العمودي كما تصفه كتب التراجم كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، والأميةُ عِلةٌ قادحةٌ في المرء ؛ إلا أن أميةَ رسولِ اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لها مدلولٌ خاص ؛ ولكنا عندما نعالج أمية الشيخ سعيد، نجد أنه ليس بالأمي الذي يعرفه الناس، وأن الذين يصِرون على أميته بمفهوم الجهل يبالغون كثيراً في ذلك، فالشيخ سعيد عاش ردحاً من عمره بين التعلم والعلم، وكانت مدينته قيدون وما جاورها مكاناً خاصاً للعلم والعلماء، إلا أنه لم يتدرج في الأخذ والطلب كما هو حال الطلاب والمريدين، بل كان يكتفي بالسماع والمجالسة، والسماع والمجالسة نوع من أنواع التعلم، وقد أُثر بحضرموت أن هناك من حفظ القرآن ليس بقصد الحفظ وإنما لكثرة سماعه وحضوره مع القراءة، وهذا ليس مستحيلاً، إضافة إلى أن أعمال الطاعات والعبادات وما يشترط لها من الأركان والواجبات والسنن وغير ذلك كان العلماء ليلاً ونهاراً يفَقهون الناس فيها، دون الحاجة للبحث أو الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ في سبيلِ تحصيلِ ذلك، فالشيخ سعيد بن عيسى العمودي أُمي من حيث التدرج في طلب العلم على يد العلماء آنذاك، عالِم بكل ما يلزم علمه من الدين، إلا أنه آثر الخمول

والعزلة والبعد عن نشاط الحياة الفكرية، ومن خلال هذا الخمـول كان يتعلم ويستفيد ويزداد نوراً على نورٍ، وقد برز هذا النور جلياً عندما قدح علم التصوف في ذهنه قوادح الحكمة، وبـرز إمامـاً وشيخاً، ومسلكاً ومربياً، وصدرت عن لسانه عبـارات الـذوق والحكمة وهو يطوي تلاميذه على طريق العلم والعمل، فاقرأ مـا يقول :

ليس لأحد من المشايخ فضلٌ إذا أحب أن يحمد بما يفعلـه مـن المعروف إلى فقرائه، إن فقراءه كأولاده، فليس يحمد من فعلـه في الأباعد من الناس. ويقول رحمه اللّه : لا يصحبن أحدكم المشؤوم وإن أركبه .

ويقول في مجال الحديث عن البركة بالعلم والعمل : الثمر كـثير والحصاد قليلٌ . ولما سئل عن شروط الشيخ المربي أجاب بقوله : أن يكون جوالَ الفِكر، جوهري الذكر، قليلَ المنازعة، كريم المراجعة، عظيماً حِلْمه، كثيراً عِلمه، أوسع الناسِ صدراً، وأذلهـم نفْسـاً، ضحِكُه تبسما، واستفهامه تعلما، مذكراً للغافل، معلماً للجاهل، لا يشمت بمصيبة، لا يجهلُ بمن جهلَ عليه، مسروراً بمن أتى إليه، آنِساً للغريب، عوناً للمسلمين في كل أمرٍ تعِيب، أباً لليتـيم، ومعينـاً

للضعفاء والمساكين، حزنه في قلبه، مسروراً بربه، مستوحشاً من أهل الدنيا، لا يبخل ولا يعجل، ولا يضحك لما ينتصر، ولا يغتاظ على من يؤذيه، بل يعفو ويصفح، ولا يخوض فيما لا يعنيه، وإن شِتم لا يشتم، وإن سِئلَ لا يمنع، وإن مِنع لا يغضب، ألين من الزبد، وأحلى من الشهد، قريباً من الخير وأهله، بعيداً عن الشر وأهله، غَضبه بحكْمِ عدِله .

ويقول أيضاً : لا يكون الشيخ شيخاً حتى يكون عالماً بأصول الدين وفروعه، فالأصولُ سبعةٌ والفروع سبعون .

ولما سأله الشيخ أحمد ابن أبي الجَعدِ عن طريق الصوفية أجاب بقوله : طريق الصوفية طريق محققين، وطريق مجتهدين ؛ فأما **طريق المحققين** فهجر الخلائق، وقَطْع العلائق، والاجتهاد في خدمة المَلِكِ الخالق . وأما **طريق المجتهدين** فالصيام والقيام وترك الآثام[(١)] .

وأجاب أيضاً على سؤالٍ آخر لابن أبي الجَعد، عندما سأله عن صفات الفقير الصابر، فقال : أن يلبس مدرعة من البلاء، ودلقا من

(١) قال مؤلف « عرائس الوجود » : وقد شرح هذه المقالة الفقيه الإمام عبدالله بازرعة في رسالة وبين شيئاً من معناها .

العزة، ورداءً من الخشوع، وسراويل من العفاف، ولحافاً من الحياء، وجبةً من المراقبة، وعكازاً من التوكل، ومشعلاً من الإيثار، ونعـلاً من الصبر، وسواكاً من القناعة، ولْيتخِذْ زاويةً من العلم، وشراباً من المعرفة، فإذا وقف بباب المعرفة ووقف بباب المَلِكِ القُدوس انتهى، فإذا انتهى أُعطِي صفاتٍ غريبةً يعرف ا، فإذا عرِف ا كان أرق من الماء، وأعلى من السماء، فيكون جانبه أخصب وهِمته أقطع من السيف، وكلامه مجانباً للحيف، مثَلُه مثَلُ البحر يغسِلُ فيه الغاسل، ويأكل من سمكه الآكِل، الداخلُ فيه مستريح من تعـب المسـافة، وينجيه من المخافة، إن قال صدق، وإن قيل له صدق، وينصف من نفسه، ولا ينتصف لها، أي شيءٍ رزقَه اللّه رضِي به واكتفـى، لا يظلم أحداً من خلق اللّه تعالى، وإن ظَلَم صبر وعفى، أولئك الذين هداهم اللّه وأولئك هم المفلحون . انتهى[1] .

(١) المصدر السابق ٢٥٠-٢٥١ .

آثار الشيخ سعيد العمودي

ترك الشيخ سعيد بن عيسى العمودي آثاراً علميةً واضحةً في كثيرٍ من بلاد حضرموت وبقية مناطق اليمن وشرق إفريقيا وإندونيسيا وغيرها من البلاد، مثَلُه كمثَل آثار السادة بني علوي، حيث كانت طريقة الفقيه المقدم والشيخ سعيد بن عيسى طريقاً ذات هدفٍ وغايةٍ واحدةٍ، ولذلك انتشرت آثارهما في وقتٍ واحدٍ تقريباً وتوزع تلامذتهما وأتباعهما سوياً في أنحاء المعمورة، فما مِن مظهرٍ من المظاهر الروحية للسادة بني علوي إلا وتجد له رافداً وسنداً من مظاهر الشيخ آل العمودي، وقد يزداد نفوذ المشايخ آل العمودي في بعض المناطق ويبرز متفرداً في نشر الدعوة والعلم وإصلاح ذات البين .

فعلى سبيل المثال - لا الحصر - نجد نفوذ آل العمودي في وداي دوعن منذ حياة الشيخ سعيد ثم في حياة أولاده وأحفاده قوياً هيأ لهم في بعض المراحل إقامة الدولة والسلطة الدينية والدنيوية .

كما أن للشيخ سعيد في وادي حجر وما حولها من القرى المآثر الكبيرةَ، وأهمها بناء المساجد، فما من مسجدٍ بتلك الأصقاع إلا

ونسِب للعمودي وأبنائه، وللشيخ سعيد أيضـا في وادي حجـر عائدات وصدقات جرت ا العادة منذ القرون القديمة، وذلك لَما شكى إليه أهل تلك النواحي عبثَ الجان بنخلهم وثمرهم، فدعا لهم بالحفظ وألْزمهم إخراج صدقاتٍ من نخلهم للفقـراء والمسـاكين، فبقيت هذه العادة مستمرةً في وادي حجر حتى حصول التحولات الاجتماعية خلال مرحلة الثورة.

وفي بلاد العوالق السفلى توجد آثار كثيرةٌ للشيخ سعيد العمودي وأولاده، فهناك عدد من المساجد منها مسجد المساني ومسجد لكح ومسجد الشيخ سعيد بأحور، كلها تنسب للشيخ سعيد عندما زار أحور في القرن السابع الهجري، ويذكر الرواة أن أحد أحفاد الشيخ سعيد بن عيسى زار أحور ورأى انتشار القطيـب والجـذري في الأهالي حتى فتك بالكثير من الناس، فدعاهم إلى جمـع أولادهـم وبنا م والخروج م في المدينة يدورون في شوارعها قائلين : «شي للّه شي للّه شوي للّه ياالعمودي»، ودعا الناس أن يتصدق بعضـهم على بعض بما تيسر، فصارت عادةً في أحور تقام في النصف مـن شعبان، وبرزت مظهراً من مظاهر البلاد وشابتها فيما بعد شوائب سيئةٌ منها اختلاطُ الرجال بالنساء في المنازل والطرقات، ولـذلك

شدد النكير عليها سيدي الوالد علي بن أبي بكر المشهور عام حلوله بأحور ١٣٦٢، وطلب من السلطان عيدروس بن علي العولقي إيقافها فأوقفت عاماً أو عامين ؛ ولكن الأمراض الفتاكة عادت إلى البلاد من جديد فأجاز لهما الوالد عليه إعادتها بشرط أن تقتصر على الصغار والبنين والبنات فقط، واستمرت هذه العادة إلى اليوم وتعرف «بالشويللاّه»[١] .

كما أن من آثار الشيخ سعيد بن عيسى العمودي بالعوالق انتشار بعوثٍ عديدةٍ من ذريته، ولا زال منهم الكثير في القرى الساحلية من أحور كالبندر والمساني وحناذ وأحور وغيرها، وكانت لهم عادات ومقامات وترتيب عباداتٍ تشبه نظام قيدون وبضة وبقية حضرموت ؛ ولكنها زالت بزوال رجالها ومشايخها وتأثر الأبناء بعجلة الزمان والتعليم . ومن آل العمودي من ضرب في أكناف الأرض باحثاً عن الرزق، فسافر العديد منهم إلى الحجاز وإندونيسيا وإفريقيا والهند وغيرها، وظهر منهم التجار والأثرياء الذين ساهموا في حركة التجارة

(١) تحدثنا عن أصل هذه العادة في فصل خاص من كتاب « الطرف الأحور في تاريخ مخلاف أحور »، وهو تحت الطباعة، وكذلك في كتاب «قبسات النور في ترجمة سيدي الوالد علي بن أبي بكر المشهور »، مطبوع، وكلاهما لكاتب الترجمة .

والمال في تلك البلدان، ومنهم من عمر بعض المنازل في بلاده وساهموا في إعمار مسجد جدهم الشيخ سعيد بن عيسى العمودي .

ولا تزال الآثار الكتابيةُ مفقودةً أو مودعةً في منازل المشايخ آل العمودي الذين ضربوا في أكناف الأرض وتركوا خزائن كتبهم في منازلهم القديمة بدوعن، وقد شاهدت العديد من المكتبات في دوعن الأيمن والأيسر مغلقةً منذ عشرات السنين، ولا يعلم حالُ محتويا ـا الكتابية وكنوزها المعرفية إلى اليوم، والخشية كل الخشية من ذهاب هذه الآثار إما بالتلَفِ والبِلَى أو بتغير أحـوال الأحفـاد وتبـدل مفاهيمهم العلمية، بحيث يضطَر بعضهم إلى أن يتخلص من كتـب أهله بالإحراق والإبادة كما هو حال البعض اليوم، ولا حـول ولا قوة إلا بالله .

انتقاله رحمه الله إلى الدار الآخرة

عاش الشيخ سعيد حياةً مليئةً بالنفع والإفادة والإصـلاح بـين الناس، مرشداً للحاضر والباد، سالكاً م مسلك الرشاد، مع طول

تفَكرٍ وتعبدٍ للّه، وتذَوقٍ وتشوقٍ ومحبةٍ لمولاه، وكان كـثيراً مـا يستشهد في أخريات حياته بأبياتِ رابعة العدوية :

يا قريبـاً مِـن الفـؤاد يا بعيـداً عـن النظَـر
أنت عـذبت مهجـتي أنـت كلفْـتني السـهر
هكـــذا يـــا معـــذبي من بلي بـالهوى صـبر
ليس من يكْـتم الهَـوى مِثْلُ من بـاح واشـتهر

وكانت وفاته رحمه اللّه سنة ٦٧١ هـ، ودفن بمدينة قيـدون، وقبره ا مشهور، ومسجده هناك إلى اليوم معمور، رحمه اللّه رحمة الأبرار، ونفعنا بعلومه في الدارين، آمين .

حفظ بني علوي الود لآل العمودي

حفظ السادةُ بنو علوي وذراريهم للشيخ سعيد بـن عيسـى العمودي ذلك الود الذي نشأ على عصر الفقيه المقدم، ويمثلُ هـذا الحفظُ المتسلسلُ في الأحفاد والأسباط في زيـار م المتكـررة إلى قيدون لنشر العلم، ولزيارة الشيخ سعيد، ولتمكين هذه العلاقة بين

آل البيت والمشايخ الكرام، وكذلك ظهر حفاظ هذا الود، فمـن ذلك قول الشيخ عبد الرحمن بن علي بن أبي بكر :

والشيخ سعيد قد أسقي عند النبي هود وتسمى بالعمود

ولما زار السيد جعفر بن أحمد زين الحبشي المذكور مدينة قيدون ومشاهدها وزار قبر الشيخ سعيد ألقى قصيدته الشعرية التي جـاء فيها :

فإذا ما بدت لـك اعـلام وادٍ يدع قيـدون فـأنِخ بفناهـا
زر لعالي العلى سعيدِ بنِ عيسى فهناك القلوب تعطَـى مناهـا
الإمام الهُمام من قـد تسـامى في ذُرى ا دِ وارتقى لعلاهـا
فيه مخزونُ سِـرنا آلِ علْـوِي أخبرتنا بذا الثقـات شِـفاها

إلى آخر القصيدة التي وصف ا الشيخ سعيد وتوسل به .

ولا زال العلماء والصلحاء من آل البيت ومن المشايخ والمحـبين من كافة القبائل والفئات الاجتماعية يذكرون هذه الصلة الروحية العميقة، ويجدون نفَسها في ما بقي من الآثار والمشاهد والصلات .

ونختتم هذه الترجمة بقول الشيخ سعيد بن سـالم الشـواف في الشيخ سعيد ضمن قصيدته الطويلة المعروفة بـ «قصعة العسـل في

مدح أهل اللّه عز وجل» حيث وصفه بقوله :

فأولهم السيد الهول   بالحال أيضا وبالقول
مالـه مثل في السادات   آياته اعظم آيات
سيدي بن عيسى يذكر   في البحر أيضا والبر
ذاك العمودي المشهار   حتى الفرنج الكفار
الشيخ مولى قيدون   للخلق مره يردون
وآل العمودي مره   وأهل العلا والفخره
سيدي العمودي بالطول   غوث الملا شي للّه
له في السما رايات   يفرق لها املاك اللّه
له شأن عالي يشهر   مشهور شاهره اللّه
يعرفه من في الأقطار   تخضع له شي للّه
بحر الفرات وسيحون   فائض على خلق اللّه
سادة من اهل الشهرة   أصلحهم الرب اللّه

وكذلك يقول الشيخ عبد اللّه باسودان رحمه اللّه :

كالعمودِي الذي غَدا   سعده في الملا بدر
لاحظته عنايةُ اللـ   ـهِ في حالَةِ الصغر
وترقى إلى العلا   لمقامٍ بهِ افتخر

ولـ ـه حضـ ـرةٌ ـ ـا نـ ـوره ضـ ـاءَ كـ ـالقمر
وعليهـ ـ ـا جلالـ ـ ـةٌ تلْبس الحـ ـالَ مـ ـن حضـ ـر

سلالات آل العمودي وتفرقهم في البلدان

ظهرت منذ القرن السابع الهجري لأسرة المشايخ آل العمـ ـودي مكانةٌ اجتماعيةٌ وصولةٌ وسلطنةٌ في وادي حضرموت وما جاورها من الأودية والبلدان، وكان أساس هذا النفوذ وقاعدته مظهر الشيخ سعيد بن عيسى العمودي، المظهر الذي رسخه الشيخ سعيد مجاوراً ومساعداً ومسانداً لمظهر وأثر الفقيه المقدم، و ذا النفوذ الروحـ ـي والموقف الاجتماعي الديني انتشر المنهج الصوفي المتميز، وظهـ ـرت المدرسة العلوية، والطريقة العمودية، في كافة المـ ـدارس والزوايـ ـا والمساجد، متمثلةً في أساليبها الخاصة، ووسائلها المألوفة، ومنها:

(١) نظام الحلقات العلمية لدراسة المذهب الشافعي وقراءة كتب الذوق.

(٢) إقامة الحضرات والأذكار والموالد .

(٣) الاهتمام با اهدة للنفس من خلال الأخـ ـذ بـ ـالعزائم في الشرع .

(٤) تصفية النفس عن كدورا ا بالآداب والأخلاق والتواضع .

(٥) إشاعة مبدأ حسن الظن في الجميع .
(٦) إشاعة مبدأ التنافس في أعمال الخير والطاعات .

ومن خلال هذه المبادئ والأعمال الصالحة سرى أَثَر الطريق إلى كافة الفئات الاجتماعية، وبلغ إلى مستوى التأثير على حملة السلاح والحكام والظلمة، ومن أسرار هذا المبدأ أيضا تمكن شيوخ الطريق في حضرموت ونواحيها من بسط نفوذِهم الروحي على القبائل، مما ساهم في حفظ كرامة المسافرين من السلب والنهب، وأسهم أيضا في إقامة وتشييد « الحُوط » الآمنة التي يحرم فيها الاعتـداء علـى الآمنين فيها ولو كانوا من الأعداء الألِداء، وأسهم هذا في تحريـك الأسواق وانتشار التجارة، و يئة مصالح النـاس دون خـوف ولا فزع.

وقام الشيوخ أيضا بأخذ العهود على القبائل من جهة، وعلـى الحكام من جهة أخرى، لما فيه من مصلحة الجميع من الرعايا، مثل تأمين المسالك وفض النـزاعات، وحفـظ الأمـوال وحراسـة الممتلكات، وسرى سِر هذا القانون الروحي في كثيرٍ مـن بـلاد اليمن، و يأ ذا القانون تنقلُ المسافرين، وتحول العلماء والمشـايخ والدعاة من بلد إلى بلد دون خوف، بل صـار لآل العمـودي في

وادي دوعن ووادي حجر وبلاد العوالق وغيرها من الـبلاد الـتي نـزلوا ا مقام اجتماعي مرموق، وصاروا يؤدون وظيفةَ العلـم، وحفظَ الأمن، مثل إخوا م في طريق السادة بن علوي، متـوارثين هذه المقامات والمراتب، جيلاً بعد جيلٍ، حـتى ظهـور العصـر الحديث، ودخول البلاد ضمن معاهدات الحماية، و ا بـدأ العـد التنازلي لأثر هذه المقامات الروحية شيئاً فشيئاً إلى اليوم .

الخاتمة

إن إهمالنا لتاريخنا الذاتي، والاستعاضةَ عنه بتقـديس الواقـع، والتغني بشخوصه وطقوسه ؛ قد أورثَنا الذل والوهن، وجعل منـا - ونحن أمةُ تاريخٍ وسلالةُ فضلٍ وعلمٍ - جعل منا دمى تروَّـد في ميدان العرض والطلب، ننفذُ مصالح الحاقدين على كُـل سـلالةٍ صالحة، ونرضى بذَر الرماد على عيوننا، وقد ذُر الرماد على العيون حتى بلغ أثره القلوب، وانتقل أجيالُ هذه السلالات من مسـتوى الاهتمام بتاريخهم إلى محاكمته ونقدِه والطعنِ في الآباء الصـالحين والأجداد المتقين .

وكثير منهم لا يدري لمصلحة من هذه الأفاعيل، ولا يفرق بين الحق المطموس وبين واقع الأضاليل؛ لكن إلى متى يا قـوم ؟ مـتى نعرف المستثمر الحقيقي لترهات النقض والقبض ؟ ومتى نفهم المعنى من المثل القائل : « رحِم اللّه امرءً عرف قَدر نفْسِه » .

الفهرس